هل يتجه العالم نحو ثقافة إنسانية ؟

لحضرة صاحب السعادة محمد بهى الدين بركات باشا

سيداتى سادتى .

ليس فينا من لايستمع إلى الراديو يوميا ، بل منا من يتتبعون أخباره فى الداخل والخارج عدة مرات كل يوم ، فهل فكرنا فى مدى ما أدخلته تلك الآلة الصغيرة أعنى عدة الراديو من تطور جسيم فى حالة العالم بما أزالت من حدود بين الأمم المختلفة وما خلقت من اتصال سريع بين الناس و بما سهلت من انبثاث الأفكار وانسياب الآراء بين سكان هذا العالم مهما اختلفت أجناسهم وتباعدت بلادهم وتشعّبت ألسنتهم .

نحن اليوم نجلس فى غرفتنا فنحرك تلك الآلة الصغيرة فنسمع لندن و باريس ونيو يورك وموسكو و برلين فى ساعة واحدة ونطلع على ما تذيعه كل منها من الأخبار وما تعلق به من الآراء على المواقع الحربية وتطورات الحرب ساعة فساعة ، وكثيرا ما نسمع خطبة سياسية هامة فى المساء ونسمع التعليق عليها من الجانب المناصر أو الجانب المعادى فى نفس الليلة أو فى اليوم التالى على الأكثر ، فالعالم جميعه أصبح سوقا مشتركة يدلى كل برأيه و يؤيده بحججه ويناصره بكل ما يعتقده مجبذا لفكره من غير أن تقف دون ذلك حدود سياسية أو غيرها ، فلقد رأينا المدن الكبيرة نفسها تحرص على أن تصل أفكارها وآراؤها ومذاهبها الى جميع بلاد العالم فهى لا تقتصر على محطة إذاعة واحدة ولا تكتفى بالاذاعة بلغة واحدة بل تذيع عشرات اللغات حتى لا يبقى شخص فى العالم المتمدن دون أن تكون له فرصة الاستماع إلى تلك الاذاعات بلغته هو .

تصوروا تلك الحالة ثم قارنوها بما كانت عليه فى الحرب الماضية حيث كان الاتصال قاصرا على التلغرافات التى تصل الى كل مملكة بقدر محدود إذ كان الاتصال قاصرا على البلاد التى يكون لها فيها وكلاء يوافونها بالأخبار . ليس من شك أن من يضع هذه التطورات نصب عينيه يرى أن تقييد الأفكار أو الحجر عليها أصبح ضربا من المحال فاذا كانت المطبعة قد أتت بالعجائب وقلبت العالم فى القرون الوسطى بما سهلت من اتصال الأفكار فماذا يكون مقدار أثر الراديو فى عهدنا الحاضر ؟ لا شك أن هذا الاتصال الروحى الذى وحّد بين أجزاء العالم على أثر هذا الاكتشاف العجيب سيكون له أثر شامل لا أحسبنى مبالغا اذا قلت إنه الحجر الأول فى سبيل توحيد العالم .

فاذا ما نحن تركنا الراديو جانبا وفكرنا فى مدى أثر السنما علينا حيث نرى الآلاف بل عشرات الآلاف من الناس فى مصر وحدها يذهبون كل يوم ليروا ما تخرجه أمريكا وغيرها مما يحمل الناس فى جميع أجزاء المعمورة يطلعون على سبل معيشة كل بلد من البلاد . ولقد فطر الناس على حب التقليد لذلك ترانا بعد أن كنا فى الأجيال الماضية نحرص فى كل بلد على عادات معينة وطرق من الزى خاصة حتى إن كل اقليم كان ينفرد بطابع خاص يميزه عن سواه وكان يحرص على المحافظة على هذا الطابع و يعتبره تراثا يجب المحافظة عليه ، ترانا الآن يقلد بعضنا بعضا فى اللباس وفى المأكل وفى طريقة المشى وفى المعيشة بل وفى طرق الزينة وقص الشارب وتقليم الأظافر بل وكيفية السلام الى غير ذلك من أنواع التجمل وتفاصيل الحياة التى لم تكن تسنح الفرصة لمعرفتها فضلا عن تقليدها الا للنذر اليسير من الناس الذين آتاهم الله سعة فى الرزق وصحة يستطيعون معها أن يجوبوا أنحاء العالم مع ما كان فى السفر من مشاق ومجازفات لا يمكن أن يضطلع بها إلا النذر اليسير من الناس وهل لى بعد ذلك أن أشير الى ما حدث من تطور جسيم بسبب سهولة المواصلات ، فلقد كانت المسافات بين قطر وقطر تجعل الناس بعيدين بعضهم عن بعض فى الأفكار وفى الآراء وفى فهم الحياة فجاء البخار وانطوت معه المسافات الشاسعة وتعارف الناس بعضهم ببعض ، ولكن أين هذا مما نرى اليوم وقد ملكنا الهواء فأقترب ما كان بعيدا فرأينا رئيس الوزارة الانجليزية وقد جاوز السبعين يطير الى كازبلانكا من انجلترا كما رأينا الرئيس روزفلت يطير اليها من الولايات المتحدة ليتفاوضا فى شئون الحرب ويدبرا ميدان القتال بين المئين من الملايين ، ولعمرى نرى العالم جميعه وقد انقلب الى معسكرين عظيمين فمعسكر الديمقراطيات وفيه أميركا والامبراطورية البريطانية وإلى جانبهما روسيا الشيوعية والى الجانب الآخر الدولتان اللتان تمثلان الاوتوقراطية والى جانبهما اليابان زعيمة الجيش الأصفر وأين هذا مما كنا نشهده أو نسمع به منذ جيل واحد من الزمان بل منذ عشر سنين فقط .

اننا لا نزال أن الولايات المتحدة كانت دائما حريصة على أن تبتعد عن سياسة العالم القديم حريصة على أن تتركه وشأنه يدير علاقات ممالكه بما يراه كل منها حتى اذا وقعت الحرب الماضية وطال أمدها وتوجست أميركا خشية من مصيرها رأينا الجيوش الأميركية تعبر البحار لنصرة فرنسا وبريطانيا ونصرة مبادئ ولسن الأربعة عشر حتى اذا ما انتهت الحرب ورأينا ساعة السلم قد أذنت بمؤتمر الصلح رأينا أميركا تصر على أن لا يزيد اشتراكها فيه على وجود عضو مشاهد فحسب دون أن تأخذ نصيبا مباشرا فى مؤتمر السلام ، وعند ذاك رأينا الأمريكيين يطعنون على سياسة الاشتراك مع أوروبا و يؤكدون بكل الوسائل أنه لن يكون لأمريكا فى المستقبل تدخل فى المشاكل الأوروبية .

ولكن هـذه الحرب لم تلبث أن هددت مصير أوروبا بل والعـالم القديم بأجمعه حتى رأينا أميركا تنسى كل سياستها التقليدية وتعود الى الحرب على وجه أهم مما كانت عليه فى الحرب الماضية بجيوشها ليست فى فرنسا وحدها بل أنهـا تحارب فى الشرق الأقصى وفى استراليا وفى جزر الفلبين وفى شرق افريقيا وفى البحر الأحمر بل أنها وصلت الى مصر وهى من الناحية الأخرى تحتل مراكش والجزائر حتى لم تعـد فى الحرب مجرد عون لأوروبا المقتحمة ولا للامبراطورية البريطانية وحدها ولكنها محارب أصلى تضرب بعنف وشجاعة وتتلقى الضربات بصبر وبسالة .

ذلك هو الحال اليوم وهو ليس قاصرا على أمريكا بل إن ما نراه من السياسة الروسـية ومن السياسة نحو روسيا لأعجب بكثير مما نشاهده بالنسبة للسياسة الأمريكية، فروسيا عندما اعتنقت المبادئ الشيوعية قاطعها العالم بأجمعه ورأى فى عملها خروجا على المبادئ الانسانية وفوضى ووحشية لا يصح لمن كان يحرص على وطنـه ويحترم مبادئ الشرف أن يتعامل مع أهلها أو أن يتصل بهم حتى لمجرد الدراسة ولقد ظل الحال على ذلك أعواما وأعواما حتى رأينا فى مصر قانونا يصدر بجواز حرمان كل من يدرس فى روسيا أو يقم فيها من الجنسية المصرية حفظا للأمن العام وحرصا على سلامة البلاد من انتشار الأفكار المخالفة لمبادئ الإنسانية والمدنية .

كان ذلك منذ عشر سنين فقط قبل إعلان الحرب سنة ١٩٣٩ والآن ماذا نرى؟ لقد صارت روسيا جنبا الى جنب مع بريطانيا وأميركا، لقد أصبحت حليفة على قدم المساواة معهما ولقد أصبحت شريكة فى الرأى لهما بل سيكون لرأيها مقامه فى تنظيم العالم بعد الحرب .

لست أنا الذى أقول هذا أيها السـادة بل إن هذا هو قول عاهل انجلترا المستر تشرشل حيث جاء فى خطابه الاخير منذ عشرة أيام عن رعاية الأمم الصغيرة قوله . " والآن ما شأن العدد الكبير من الأمم الصغيرة التى لابد من صيانة حقوقها ومصالحها؟ إنه ينبغى أن يكون هناك الى جانب الدول الكبرى عدد من مجموعات الدويلات أو اتحاداتها على أن يعبر ممثلوها المختارون عن أغراضها وأمانيها . وعندى أن هذا كله سيكون منسجما مع المصالح العليا الدائمة لبريطانيا والولايات المتحدة وروسيا . ومن الثابت أن هذه الأمنية لا يمكن أن تتحقق الا برضاء هذه الدول الثلاث الخالص واتفاقها التام " .

فهل عرفتم مدى التطور العظيم الذى حدث فى الأفكار وفى الآراء ثم تصورتم بعـد ذلك ما يمكن أن تكون عليه الحال اذا ما وضعت الحرب أوزارها ، ألا يكون المحتم عند ذاك أن يكون الاتصال الأدبى والاقتصادى والسياسى كاملا بين هـذه الدول الثلاث ، وهل يمكن اذا ما تم هذا الاتصال وأصبح التبادل الاقتصادى تاما بين تلك البلاد إلا أن تتقارب النظم الاجتماعية وتتم الخطوة الأولى وهى خطوة واسعة جدا فى سبيل توحيد النظم بين تلك

الدول المتناقضة المذاهب والمتباينة الأجناس؟ وهلا يؤذن ذلك بتوحيد الشعوب واندماجها بعضها فى بعض أو على الأقل تقاربها وتفاهمها وعملها مشتركة بعضها مع بعض و إلا فخبرونى كيف يمكن أن نتصور بعد ما نشاهده اليوم ، أن أحدا يجرؤ أن تحدثه نفسه بوضع روسيا فى عزلة عن العالم أو أن أمريكا يقبل أن يكون دوره فى العالم قاصرا على أن يشترك معه فى يوم الكريهة فاذا ما جاء يوم السلم ابتعد عنه وعن الاشتراك معه فى نظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ؟

وهل اذا ما نحن اتجهنا ببصرنا نحو المانيا النازية وقد شادت مذهبها بل ونظمها الاجتماعية على أساس تفوق الجنس الآرى وسيادته على ماعداه من الأجناس ثم رأينا كيف أن اليابان كانت سبب انقاذها فى العام الماضى من انكسارها فى الحرب ، هل هى تستطيع بعد ذلك أن تمسك ضد الجنس الأصفر بنظرية هذه السيادة أم أنها لابد معاملة له على قدم المساواة التامة ؟

إنى لألمح أيها السادة فى المستقبل القريب زوال الحواجز الصناعية لمنع الاتصال بين الشعوب والأمم فسيكون عالمنا بأجمعه ميدانا واسعا جدا لتبادل الأفكار والآراء وتجربة النظم المختلفة فيه على تباعدها عن بعضها ومن ذلك ستتقارب الأفكار وتتسابق الآراء وتتحد الجهود فى سبيل سعادة البشر فان لم تتمخض هذه الحرب عن ذلك فستتلوها حرب تكون أوسع مدى وأعنف جهادا وأقدر على صهر الشعوب والأمم حتى تصل إلى تلك الغاية أما بقاء شعب أو أكثر أو ابقاؤه فى عزلة عن باقى الشعوب فقد أصبح أمرا مستحيلا وقد علمنا التاريخ الحديث أن العالم يسير فى طريق الوحدة أو ما فى حكمها كجامعة أمم متحدة فكما أن الدول الحاضرة تكونت على آثار نظم القبائل والاقطاعات ، فكذلك ستتكون الانظمة على أساس تقوض الانظمة الحاضرة .

بل إننا اذا نحن تركنا ما يحتمل حدوثه من التقرب بين انتصار كل فريق من المتحاربين ونظرنا الى ما يحتمل حدوثه بين المتحاربين أنفسهم على ضوء ما حدث من التقارب بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية و بعدها وما تدعو اليه الحرب من تقاليد فى الانظمة وتقليد فى الاسلحة وتقليد فى المناورات الحربية وتقليد فى طرق الفتك والتدمير أليس كل ذلك مدعاة لأن يسود العالم علم واحد وأن تنتظم الجهود فى اتجاه مشترك ان لم يكن عاجلا فآجلا .

لاتظنوا أيها السادة أنى ألمح من ذلك عهدا قريبا تسود فيه العدالة والرحمة وتتعاون جميع الشعوب الانسانية فى سبيل مصلحة المجموع ، كلا بل إنى لا أزال أرى أمامنا مواقع دامية يسود فيها الظلم وتتحكم فيها القوة المجردة وتضطهد فيها شعوب وتظلم أمم ولكنى أرى رغم كل ذلك أننا فى سبيل تناسق وتوحيد بين العالم أجمع ، سيكون الثمن غاليا وستكون

الضحايا كثيرة وعديدة وستنشأ الأنظمة الجديدة بحيث يبقى للقوى امتيازه بل وجبروته ولكن الأقوياء أو من سيظلون اقوياء سيتحدثون حتما او يشنبكون اشتباكا يتغلب فيه من يتغلب فينفذ آراءه ويخدم الوحدة سواء أراد هو أم لم يرد .

ولعل البعض يظنني ابتعدت عن موضوع الثقافة وتكلمت فى تطور سياسى ليس داخلا فى معرفة ما إذا كان العالم يتجه نحو ثقافة انسانية أولا ، ولكن مهلا أيها السيادة ودعونا نقف لحظة لنعرف ماهى الثقافة ، فلقد تفاوتت فى تفسيرها الآراء تفاوتا شاسعا فأستاذنا الكبير أحمد لطفى السيد باشا يقول فى ختام محاضرته فى هذه الجامعة " يجب على الأمة فى تربية ابنائها أن تكون غايتها الانسان المثقف ووسيلتها الى ذلك تثقيف ملكات الفرد الطبيعية : ملكات الجسم والعقل والنفس بأن يقوم بمقتضيات حفظ الذات وحفظ النوع بالاعتدال التام ثم بواجب الصدق الذى يسبب له الاقناع بكرامته وواجب السخاء الشخصى بألا يقتر ولا يسرف بل ينفق بالمعروف وواجب كرامته من حيث هو انسان فيرفض أن يكون تبعا لغيره فى غير الحدود المفروضة عليه من جهة كونه عضوا فى جمعية مدنية لها قوانين مرعية الأداء وواجب محاسبة نفسه على كل ما يخطر له من فكر أو يلفظ من قول أو يأتى من عمل وضابط ذلك كلمة أفلاطون المعروفة " تعرف نفسك بنفسك . أى تعرفها بالدرس الدائم لحلها وسبر غورها فى أعمق طياتها . ثم ينبغى أن يؤخذ الناشىء بتثقيف ملكات عقله بأن يتعلم ما هو ميسر له من العلوم والفنون قال كنت " من ليس مثقفا فهو بهيمة ومن ليس مؤدبا فهو متوحش "

فاذا نحن أخذنا بهذا التفسير لم يبق عمل فى حياة الانسان لا يكون داخلا على نحو أو آخر فى معنى الثقافة وعلى ذلك تكون كل العلاقات بين الناس سواء أكانت اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية أم ادبية أم تشريعية أم روحية داخلة فى معنى الثقافة ويكون كل تقارب فى أى ناحية من تلك النواحى بين شعب وآخر أو بين فرد وفرد مما ينطبق عليه هذا الحكم بل نحن لا نكون مبالغين اذا ما قلنا إن الاتحادات الرياضية والمسابقات الاولمبية نوع من التثقيف ففى تنظيمها بين الدول المختلفة اتجاه جلى واضح نحو ثقافة عالمية .

كذلك يمكننا أن نقول إن مؤتمرات الأديان التى كانت تعقد بين الفينة والفينة للتقريب بينها والتفاهم بين الناس وبعضهم ، بل وسعى بعضها للتوحيد وإزالة الفوارق هو اتجاه واضح صريح نحو توحيد الثقافة فى العالم .

وما نقوله عن مؤتمرات الأديان ينطبق بذاته على المؤتمرات التعليمية والمؤتمرات التشريعية ، بل والمؤتمرات الطبية فإنها جميعها إنما ترمى الى الوصول الى تكوين رأى عام عالمى للسير عليه فى التربية وفى التعليم وفى التشريع وفى طرق معاملة المجرمين والموضى وفى صيانة الحقوق الأدبية للكتاب والمؤلفين وفى الوصول الى أجدى طرق العلاج . كل

ذلك كان موجودا وهو اليوم أقوى أثرا وأسرع مما كان عليه قبل الحرب الحاضرة ، أى منذ ثلاث أو أربع سنوات فقط.

أنظر الى انجلترا وكيف أنها وسط هذا الضجيج الهائل وتلك المجزرة البشرية التى لم يسمع التاريخ بما يماثلها هولا كيف أنها وسط كل ذلك تبحث مشروعا لتحسين حالة العمال وضمان العيش لكل شيخ وكل عاطل عن العمل ، ثم انظر الى أميركا وهى بعد أسابيع قليلة من تقديم مشروع بيفردج تنسج على نفس المنوال وتتبع نفس الخطة ، فواجب الحكومة يحتم عليها أن تكفل لكل مواطن حقه فى الحصول على عمل ، وحقه فى الحصول على دخل يتناسب مع احترامه لنفسه حينما يعجز عن العمل . ولو لم توجد مثل هذه الكفالة الاجتماعية والاقتصادية لما أصبحت هناك أى ضمانة للحرية . ولا شك أن كل جهودنا (هكذا تقول اللجنة الأميركية) لإقامة الحياة والحرية والسعى الى الرخاء ستذهب عبثا ما لم تعتمد على أساس وطيد من التأمين الاجتماعى والاقتصادى .

أرأيتم أيها السادة كيف أن العالم اليوم صار يتقارب من بعضه ، بل كيف أن الأثير جعل كل الشعوب تطلع على ما يجرى خارج بلادها ، فلا تلبث واحدة منها أن تقوم بنظام جديد حتى ترى هذا النظام موضع بحث وتمحيص فى البلاد الأخرى ، بل ربما كان هناك مباراة وتسابق بين الأمم فى أيها يسبق الأخرى ، أليس ذلك هو المقصود بقولنا إن العالم يتجه نحو ثقافة عالمية .

قد يقول البعض إننا توسعنا توسعا كبيرا فى تفسير معنى الثقافة ، والحقيقة أن الثقافة إن صح التعبير بها على الملكات العقلية والروحية فهى لن تنطبق على تثقيف ملكات الجسم مثلا ، ولقد عرفها الأستاذ محمد مظهر سعيد فى عدد يناير سنة ١٩٤٠ من الهلال حيث قال "فالرجل المثقف غير الرجل المتعلم ، فهو أكثر مرونة فى العقل وأوسع مجالا فى الحديث وأكبر مدى فى المعلومات وله شخصية قوية محبوبة ورأى بارز فى المجتمع وأثر كبير فى الأمور العامة ، وهو لا يكون كذلك إلا إذا ألم بطرف من الأدب والفن واتصل بأمور الحياة العامة وعرف ما يجرى فى بلده وفى العالم من الأحداث الهامة وعرف لغة أخرى غير لغته وتتبع النهضة العلمية الحديثة وتيار الفكر فى الشرق والغرب الى جانب علومه التى تخصص فيها . على ألا تبقى هذه الطوائف من المعلومات منعزلة مستقلة بعضها عن بعض فيصبح عقله مخزنا كبيرا به غرف غير متصلة . وانما هو يؤلف بينها فى مجموعات منتظمة : واحدة للعلوم وثانية للمعلومات العامة وأخرى للتاريخ والاجتماع وهكذا على قدر تنوع معلوماته . ثم يربط هذه المعلومات بعضها ببعض فتصبح كلها مجموعة واحدة كبرى أو دولة علمية يشد بعضها أزر بعض ويستفيد كل فرع منها من باقى الفروع بحيث إذا تكلم فى الدين عرج على الفلسفة والمنطق واستعان بالتاريخ للاستقصاء والمقابلة وبالعلوم للبحث والتمحيص فتدور معلوماته

كلها حول محور واحد يتدرج فيه إلى الغرض الأسمى من التعليم والتثقيف . وهو دراسة طرائق التفكير الصحيحة ومناهج البحث ومعالجة الأمور بالحكمة والنظر فيها نظرا سديدا وكسب العادات العقلية المنظمة" . هكذا عرف الثقافة أستاذ أشرف هنا وفى العراق على اختبار درجة الثقافة العامة . وهو تعريف ان سهل أن يكون وصفا لأشخاص بذاتهم فانه لا يكاد يحصر الاتجاه الذى يمكن أن يتعرف به الانسان المعنى المقصود من لفظ الثقافة فهى فى عرفه ترجع إلى توسيع المدارك العامة وتنظيم المعلومات الفنية والأدبية والعلمية وهضم علومها جميعا لدرجة تمكن الشخص من أن يكون ذا رأى بل ومذهب فى الحياة بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك فهو يعتبر الشخصية القوية المحبوبة شرطا من شروط الرجل المثقف .

ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إن تلك الصفات على أهميتها وفائدتها فى الحياة لا تتوفر جميعها إلا نادرا فى شخص واحد لذلك أرانى أميل إلى تعريف الاتجاه الثقافى بأنه الاتجاه الفكرى والروحى فهل نحن حقيقة آخذون فى سبيل اتجاه عالمى من هذا القبيل ؟

إن جميع ما قدمت من الملاحظات والآراء يجعلنا نجيب على هذا السؤال بالايجاب ، ولكنا من الناحية الأخرى إذا ما رجعنا إلى تحليل تفاصيل الحياة ومعارك المجتمع الذى نعيش فيه وجدنا الأمر على خلاف ذلك تماما ، فإن أقصى ما يرد بالخاطر أن تتسع المملكة اتساعا يجعلها أضعاف ما هى عليه اليوم حتى لا يبقى فى العالم الا عدد محدود من الدول فهل هذا يحل الاشكال ؟ ! كلا فمصر دولة واحدة ونظامها السياسى واحد وتشريعها واحد ودين أغلبيتها العظمى واحد ولغتها واحدة وطقوس أفراحها ومآتمها واحدة ، لكن هيا بنا نفحص قليلا أفكار الناس وآراءهم اذن لرأينا بونا شاسعا وتناقضا عظيما وعراكا مستمرا بين مذهب ومذهب ، وبين رأى ورأى .

هذا يدافع عن السفور ويراه حقا طبيعيا تتمتع به المرأة ويرى أنه السبيل الوحيد لترقية المجتمع لأن المرأة التى لا تختلط بالناس ولا تعرف الحياة لا يمكن أن تكون أما صالحة ولا ربة بيت نافعة ؛ وهذا يطعن على السفور ويرى فيه مخالفة للدين وتقليدا أعمى للأوروبيين ويعتقد أن السفور عار وسبة للمدنية .

وهذا يرى وجوب تقليد أوربا فى نظمها وطرق معيشتها بل وفى المأكل والمشرب ؛ والآخر يرى أن لا شأن لنا بغير بلادنا فنحن شرقيون وهم غربيون وسبيلنا الى النجاح أن نحرص على تقاليدنا وقواعد ديننا وأن نستقل فى أمورنا عن سوانا .

وهذا يرى أن يكون هدف مصر الأسمى أن تكون قطعة من أوروبا ، وذاك يراها جزءا من البلاد العربيـــة يجب عليها أن تحافظ عليها وتتفانى فى الاخلاص لهـا وتجعلها هدفها الأسمى الذى تسعى اليه وتعمل على تحقيقه مهما كانت الظروف والدوافع .

هـذا فى مصر وهى شعب واحد ولغة واحدة ونظام واحد فاذا ما حولنا نظرنا الى فرنسا مثلا قبل الحرب لوجدنا عوامل خلاف متأصلة فى شعبها رغم وجود الاتحاد فى اللغة والنظام والدين، ففيها من كانوا يسعون الى بسط النظم الشيوعية بكل تعاليمها حتى وصلوا الى أن يجعلوا لهم عددا محترما من النواب يتصلون هاتفيا بموسكو ويعملون بتعاليمها فى أشد الأزمات حرجا فى بلادهم كما كان فيها من كانوا يرون ويدعون الى نظام الملكية ويطالبون بإعادتها ويعلنون إفلاس الحكم النيابى .

كذلك كان فى فرنسا دعاة أشداء أقوياء يناصرون الديمقرطيات ويرونها المثل الأعلى للانسانية، وازاءهم كما نرى دعاة الدكتاتورية والنظم الفاشية أو النازية .

وغير هؤلاء وهؤلاء كما نرى كتابا ومفكرين يدعون الى الفكرة الدينية ، وغيرهم يعلنون حربا لا هوادة فيها على الأديان والشرائع السماوية وكتب الله ورسله .

ونحن اذا ما اتجهنا ببصرنا الى غير مصر وفرنسا ونظرنا الى الأمم المتعددة الشعوب واللغات والدين، لوجدنا خلافات أشد غورا وأبعد أثرا وأعمق فى نتائجها وفيما تتمخض عنه من حرب داخلية وقودها الحقد والعداوة والجهل فهل منا من يستطيع أن ينسى ما وقع وما يقع فى كثير من البلاد باسم النعرة الجنسية أو هل نسينا الحروب الأهلية فى مختلف أنحاء العالم وعلى ممر الدهور بين السود والبيض . وألا نزال نشاهد الى اليوم فى بلاد تزعم أنها وصلت الى أقصى درجات الحرية والرقى تفريبا بين الشعوب فأجناس بذاتها لا يجوز لها الدخول فى بعض المحال العامة لأنها قاصرة على غيرهم .

لست أود أن أستطرد فى هـذا الحديث لأنه مؤلم مرير ومن شأنه أن يثير ذكريات ليس من الصالح اثارتها أو تحريكها ولكننا أردنا فقط أن نشير الى أن الشعوب والأمم لايزال بينها وبين بعضها فوارق أساسية تقتضى أجيالا وأجيالا فى سبيل تذليلها وأننا لم نصل بعـد فى هـذه الناحية الى درجة يمكن الاغتباط بها أو الرضى عنها فاتحاد الثقافة لا يزال بعيدا بل أبعد مما تتصورون فإذا قلت إننا فى طريق بناء اتحاد عالمى فانما نظرت فقط الى تطورات العالم مدى الدهور وأردت أن أقول إن اتجاه التطور الحديث من شأنه أن يساعد على وضع حجر جديد فى أساس العالم الجديد ، أما الوصول الى تحقيق الغاية فأمامه طريق طويل وطويل جدا بل ومحفوف بأشد المخاطر والأهوال .

هاتان هما الناحيتان اللتان يمكن النظر منهما الى تطور العالم نحو ثقافة عالمية ، ولكن قد يرد بالخاطر ان المقصود بثقافة انسانية فى هذا المقال ليس هو الثقافة العامة بمعنى أنها تعم جميع الأجناس بل المقصود هو الثقافة الانسانية أى التى تبنى على الانسانية الرحيمة وفى هذا أيضا نجد العالم يتطور نحو المبدأ الانسانى لما نراه فى البلاد الراقية من عناية بالمرضى ومن مكافحة

للأمراض ومن رعاية للطفولة ومن رحمة بالشيخوخة ومن إعانة للعاطلين ومن تأمين للعمال ومن ملاجىء لإعالة المحتاجين واغاثة المصابين، كل تلك أعمال انسانية تتبارى الأمم الراقية فى السبق اليها والتنويع منها لا فى بلادها فحسب بل خارج بلادها أيضا ، فالعالم فى سبيل التدرج الى أمثلة عليا كريمة فى هذه الناحية وما على الباحث الا أن يقرأ المشروع الانجليزى أو المشروع الأميركى اللذين أشرنا اليهما ليعرف كيف تتضامن الانسانيـة وتكافح لضمان الرخاء والسعادة لجميع أبناء الأمة، يستوى فى ذلك غنيهم وفقيرهم، جاهلهم وعالمهم، صحيحهم وعليلهم، شيبهم وشبانهم، فهم جميعا أبناء الوطن وهم جميعا جديرون برعايته وحنانه وعطفه.

ولكنا نرى من نافذة أخرى أهوال حرب هائلة ترهق فيها الأرواح بلا حساب فالفتك والتدمير والتخريب والتقتيل وإيقاع الأذى على الأطفال والشيوخ وعلى المدنيين الآمنين فضلا عن المحاربين بعض سلاحها فنحن إذا ما نظرنا إلى تلك الصفحة وجدنا البشرية بأكملها وهى لا تزال فى دور الفطرة الوحشى ونحن لا نزال أبعد ما نكون عن تحقيق المبادئ الانسانية الرحيمة .

ونحن اذن حيثما قلبنا وجوهنا وجدنا لتطورنا الثقافى وجهين متقابلين أحدهما ضاحك باسم يجذبنا إلى السعادة والرقى، والآخر عابس محزن ينذرنا بما ينتظرنا من مصاعب وأهوال وإنى لأرجو أن يعمل الجيل القادم — ولعلى أرى فيه أغلبية القراء — على أن يتغلب جانب الخير على جانب الشر وأن يساعد كل منا، مهما قل نصيبه فى العمل ، على أن تكون جهوده فى هذا المعترك العالمى موجهـة إلى تحقيق ثقافة انسانية رحيمـة تؤلف بين القلوب وتعلى كلمة الحق والعدل . والله يهدينا سواء السبيل .

محمد بهى الدين بركات